الفَصْلُ الرَّابِعُ

وَقَفَاتٌ مَعَ التَّفَاعُلِيَّاتِ

obeikandl.com

obeikandl.com

الوقفة الأولى: الأسباب:

ما يمرُّ به العالم اليوم من تطوُّرات متسارعة جدًّا، لاسيَّما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، الموافق السادس والعشرين من جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ، على المستوى العالمي، وقبل ذلك اجتياح العراق للكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠م، الموافق الحادي عشر من محرَّم ١٤١١هـ، ثمَّ ما تلا ذلك كلَّه من اجتياح القوَّات الأجنبية للعراق، ثم، على المستوى المحلِّي السعودي، ثم الخليجيي، بروز حركة الإرهاب، هذه التطوُّرات وصلت تقريبًا إلى كل بيت في هذه المعمورة، إنما يجعل ذلك كله الحليمَ حيرانَ. ويؤكِّد دائمًا أن النقص والتقصير سمةٌ مترسِّخةٌ في بني آدم، مهما وصلوا إليه من قدرات مادِّية وفكرية.(١)

وليست هذه الوقفة تأخذ طابعَ ادِّعاء الحكمة والتنظير، ذلك أن ما حدث يستدعي وقفات تقويم، لتحليل الأسباب التي أدَّت إلى هذه النتائج، وبالتالي النزوع إلى الوقاية، بدلا من القفز إلى العلاج، فالوقاية كفيلة – بإذن اللّه تعالى – بالاستغناء عن العلاج، مع ما يكفُله العلاج من شيء كثير. ولن يبحثَ الأسباب إلا أولئك

---

(١) انظر، في هذا الصدد: عبداللّه بن ناصر الحمود. **من أين أُتينا؟: محاولة لفهم الواقع الذي استعصى**. – الرياض: المؤلِّف، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م. – ٢٤٨ ص. وانظر، أيضًا: مجموعة من المفكِّرين. **السعوديون والإرهاب: رؤى عالمية**. – الرياض: غيناء، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. – ٥٥٩ ص.

الأشخاص الذين أوتوا قدرًا عاليًا من الحكمة، بعيدًا عن المؤثِّرات العاطفية، التي تطغى هذه الأيام على الأحداث.

والبحث في الأسباب يستدعي وقتًا طويلا ورويَّة، واستحضار جميع الأبعاد الباعثة لهذه الأسباب، بما في ذلك التقويم الذاتي، أو نقد الذات، وتلمُّس وجوه التقصير في التعامُل مع التطوُّرات المتسارعة جدًّا، وتحديد الموقف الموضوعي منها، وتخصيص التشخيص، والبعد عن التعميم، الذي طغى على أحداث الساعة الراهنة. والحكمة فضل من اللّه يؤتيه من يشاء، ولا تخلو أمَّة من حكماء أوتوا الحكمة، ولديهم الرغبة في التشخيص، كما لديهم الرغبة في تلمُّس أسباب الوقاية من حدوث أيِّ أمر مخلٍّ بسرٍ من أسرار الوجود.

ودون التوسُّع في هذا الطرح، فإن المؤمَّل أن تنزِع الأمم والشعوب إلى هذا المنحى، في معالجتها لقضاياها، فتقرِّب من الحكماء لديها، وتضعهم على المحكّ، وعندها سوف تتضاءل الأحداث – بإذن اللّه تعالى –، ذلك أن هذه الفئة سوف تضع يدها على الجرح، الذي يؤدِّي إلى مثل ما نحن عليه اليوم من تطوُّرات، ليست في مصلحة البشرية.

وقد جرى حديث بيني وبين أحد الدُّعاة، وقد زار **الغرب** في رحلة دعوية، وعاد بانطباعة غير طيِّبة عن العمل الإسلامي في تلك البلاد. وأبيت في الحديث معه، بحضور بعض المعنيين، إلا أن أرفع راية التفاؤل، حول العمل الإسلامي في كل مكان، حتى في وضع

المسلمين الراهن في بقاع كثيرة من أرض الله، شرقًا وغربًا وشمالا وجنوبًا. وما هذه الحركات التي يواجهها جمهور كبير من بني الإسلام إلا مؤشِّرٌ صادقٌ على حتميَّة التفاؤل. وأرى أن ما يتعرَّض له المسلمون في هذه البقاع إنما هو نتيجةٌ، وليس سببًا للصحوة الإسلامية، المتمثِّلة في السعي الصادق إلى العودة إلى الله تعالى. وأؤكِّد على كلمة السعي الصادق؛ لأني أرى أن العودة لم تكتمل من ناحية الثبات والاستقرار على الطريق المستقيم، وإنما هي محاولات تدعو إلى التفاؤل، مع قدر من الحذر، في حال المسلمين.[1]

ومهما حاولنا تعليق الأسباب، فيما يمرُّ بالمسلمين، على غير المسلمين بالدرجة الأولى، ومهما حاولنا توكيد نظرية المؤامرة والمخطَّط لتقويض دعائم الإسلام، ومهما لاحظنا من ممارسات تؤيِّد نظرية المؤامرة والمخطَّط، إلا أنه ينبغي علينا، جميعًا، أن نلتفت إلى وضع المسلمين، في معظم بلاد المسلمين، وبلاد غير المسلمين، فنزن هذا الوضع بالميزان الشرعي، لنرى مدى قرب المسلمين الحق من الإسلام. وكلَّما قرُب المسلمون حقًّا من الإسلام خفَّت التحديَّات أمامهم وخفتت، والعكس صحيح.

ومن ناحية أخرى فإن ما يحصل للمسلمين اليوم من غير المسلمين، ومن بعض المسلمين أحيانًا، لم يكن ليحصل في زمن

---

(١) انظر: يوسف القرضاوي. **الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرُّق المذموم**. — القاهرة: دار الشروق، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م. — ١٧٦ ص.

مضى خضع فيه المسلمون لغير الاستعمار، ولم يعرف في عالمهم من وقف في وجوههم، إلا أشخاص خلَّد التاريخ جهادَهم ضدَّ الاحتلال (الاستعمار)، وانطلقوا من الخلايا والزوايا والمساجد، وكانوا، حقيقةً، هم النواة التي قامت عليها هذه الصحوة المباركة.[١] أما بقيَّة المسلمين فكانوا مشغولين في دنياهم، ولم يكن لهم حول ولا قوة، ليس لقلَّة فيهم، ولكن لغلبة البُعد عن الله بينهم.

وعودٌ على هذا الداعية الذي عاد بانطباعة غير حسنة عن وضع المسلمين هناك، أقول: إنه لا يمكن لشخص أن يخرج بانطباعه عامة من زيارة سريعة. وألوم أولئك الذين يمضون أيامًا معدودة في بلاد من بلاد الله الواسعة، فيعودون بأحكام تعميمية سريعة. وهم كانوا في وضع المكرَّمين، الذين يُنقلون من مكان إلى آخر، وقد طُبِّقت عليهم، من باب الإكرام ليس إلا، فكرة **حُرَّاس البوابات** Gatekeepers التي مرادها إطلاعهم على جزء يسير من وضع عام، وإغفال بقيَّة الأجزاء، من جسم متكامل، فيه الحسن كما فيه السيئ.

ولا يعني هذا التفاؤل خلوَّ الساحة من التقصير والقصور، بل هي ساحة تغص بالتقصير والقصور، التقصير في الإمكانات العلمية والعملية، والقصور في علمية من يتولُّون رعاية العمل

---

(١) انظر: عبدالعظيم رمضان. **الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة**. – القاهرة: مكتبة الأسرة، ١٩٩٩م. – ٣٠٣ ص.

الإسلامي، في بلادٍ المسلمون فيها أقليَّة، والعلماء بينهم أقلُّ من القليل. وليس في هذا تعريضٌ بالعلماء الموجودين، ولكنهم لا يتمكنَّون من تغطية كل مركز ومسجد ومدينة وولاية، وهكذا.

ويعني التفاؤل، أيضًا، البعد عن اليأس الذي لا يدخل قلب مؤمن، **فأبو يوسف** – عليهما السلام – يؤكِّد على أبنائه أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.[1] ويعني التفاؤل، أيضًا، المضيَّ قدُمًا في تحمُّل المسؤولية، بالقدر الذي يستطيع فيه الفرد تحمُّلَ المسؤولية، دون أن يحمِّلَ نفسه أكثر مما تحتمل، وإلا لم يتحقَّق تحمُّل هذه المسؤولية.[2]

فكل شخص قادر على تحمُّل قدر يسير من حمل ثقيل. فإن عرف هذا القدر استطاع المضي، وإلا غرس قدميه في الرمال. والتفاؤل يعين على إدراك أن هناك آخرين من حَمَلَة المسؤولية، يسهمون في حملها، فلا يشعُر الفرد، ولا يُشعِر نفسه، أنه الوحيد الذي يحمل هذه الأمانة.

--- --- ---

(١) ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾. (يوسف ٠٨٧).

(٢) انظر: لا تحسبوه شرًّا لكم. – ص: ١٢٧ – ١٣٣.

في: جعفر شيخ إدريس. **الإسلام لعصرنا**. – الرياض: مجلة البيان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م. – (سلسلة كتاب المنتدى)

الوقفة الثانية: التلاقُح

الحضارة تقوم على أسس، لا خبطَ عشواء. وهذه الأسس تعتمد على تجارب سابقة، وعندما تتسلَّم أمَّة زمامَ الحضارة، تتسلَّمها من أمة سبقتها إليها، وهذا ما يسمى اليوم **بتلاقُح الحضارات**. والحضارة الغربية قامت على حضارة سابقة، هذه الحضارة هي التي قامت على الإسلام، والحضارة الإسلامية استأنست بالحضارة الإغريقية والهندية والفارسية، في أمور الدنيا بشكل واضح، على أنه رافد تالٍ للرافد التعبُّدي، الذي قام على الوحي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا صحَّة لمن يقول بأن هذا الوحي نفسَه كان مستمَدًّا من الحضارات السابقة، وقد قيل ذلك.

ولا تنتقل الحضارة من أمَّة إلى أخرى، إلا إذا أبدت الأولى عجزها عن مواصلة الإمساك بزمامها، لأسبابٍ في هذه الأمَّة، أو لأسباب دخيلة عليها، وافدة من خارجها، فتضعف الأمَّة عندما تتخلَّى عن المقوِّمات، التي قادتها إلى الإمساك بزمام هذه الحضارة. وقد أُريد للمسلمين أن يمسكوا بزمام الحضارة، متى ما اعتنوا بالرافد الأوَّل لها، وهو الوحي، وما فيه من مقوِّمات الحياة.(١)

لقد أوجد الغربيون حضارةً مستمدَّةً من الحضارة الإسلامية، وشجَّعهم على ذلك أن هذه الحضارة قد ربطتهم بحضارات كانوا

---

(١) انظر: علي عبدالحليم محمود. **التراجُع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلُّب عليه**. - المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. - ٤٥٦ ص.

ينتمـون إليهـا، قبـل إن يتخلّـوا عـن مقوِّمـات الإمسـاك بزمـام الحضارة،[١] ولكنَّهم أخذوا من الحضارة الإسلامية ما يتناسب مع نظرتهم المادِّية للحياة، لأنهم لو أخذوا الحضارة، بكلِّ مقوِّماتها لأضحوا مسلمين. ثم أضافوا عليها وطوَّعوها لزمانهم ومكانهم، فأصبح المسلمون الذين كانوا يستقبلونهم للتعلُّم والتعليم والإفادة، يذهبون إليهم للتعليم والتعلُّم والتدريب والإفادة، وهكذا.[٢]

وكـان الانبهـار بتلـك الحضـارة مسـيطرًا علـى معظـم أولئـك المتعلِّمين، بمـا حقَّقتـه تلـك الحضـارة مـن تقـدُّم واضـح وملمـوس في شتَّى وسائل الحياة المادِّية على الأقلِّ. أدَّى هـذا الانبهـار إلى التـأثُّر بالأسـلوب الـذي تُـدار فيـه الحيـاة. وتعـدَّى الأمـر المادِّيـات إلى الأفكـار، فكـان نتيجـة هـذا تبنِّـي الأفكـار، علـى أنهـا هـي التـي أوصلت الآخـر إلى مـا وصلوا إليـه. وأصبحت مناقشـة الأفكـار والجوانـب المعنويـة في الحيـاة أمـرًا مرفوضًـا، إذا كـان يهدُف إلى رفض هـذه الحضـارة، والتحـذير منهـا.[٣] بل أصبح من غير المقبول الدعوة إلى أخذ حسنات هذه الحضارة أو تلك، ونبذ سيئاتها، على

---

(١) انظـر: توفيـق يوسـف الـواعي. **الحضـارة الإسـلامية مقارنـةً بالحضـارة الغربيـة**. ـ المنصورة: دار الوفاء، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. ـ ٨٦٠ ص.

(٢) انظـر، مـثلاً: تومـاس باترسـون. **الحضـارة الغربيـة: الفكـرة والتـاريخ**. ـ القـاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م. ـ ١٢٠ ص.

(٣) انظر، مثلاً: كولن ولسون. **سقوط الحضارة**/ نقله إلى العربية أنيس زكي حسن. ـ ط ٤. ـ بيروت: دار الآداب، ١٩٨٧م. ـ ٤١٥ ص.

اعتبار أن كل ما في هذه الحضارة حسن، وإن وافق البعضُ، جدلا ومن الناحية النظرية، على خلاف ذلك.[1]

وهذا الموقف "المتطرِّف" في القبول المطلق كان من المتوقَّع أن يؤدي إلى موقف آخر "متطرِّف" في الرفض المطلق للحضارة، والدعوة إلى العودة المباشرة إلى الأصول والأسس الأولى، التي قامت عليها الحضارة الإسلامية. مع أن العودة إلى الأصول، بالمفهوم الذي مقتضاه العودة إلى الرافد الأوَّل، وهو الوحي، يُعدُّ من المسلَّمات التي لا يبدو أنها موضع خلاف. فالحضارة الإسلامية لا يمكن أن تكون حضارة إسلامية، إذا ما تناست الرافد الأوَّل. إنما النقاش، هنا، هو حول الروافد الأخرى غير الأصليَّة، أي الفروع والمقوِّمات المعينة على قيام الرافد الأول. وبعبارة أخرى، ليس النقاش ثقافيًا حول قبول التثليث، مثلا، على أنه من مقوِّمات حضارة أخرى.

وليس النقاش ثقافيًا حول قبول عدم وجود إله، أو وجود نبيٍّ، هو خاتم الأنبياء، أو وجود كتاب منزَّل من الله تعالى على نبيِّه **محمَّد بن عبدالله** ﷺ، أو أن هذا الكتاب قابل للتغيير، أو الزيادة أو النقص، فهذه من ثوابت الأمَّة لمن تمسَّك بزمام الحضارة، مرَّة أخرى، إذا ما وضعتها على طاولة النقاش مع حضارات أخرى.

---

(١) انظر، مثلاً: أسوالد إشبنغلر. **تدهور الحضارة الغربية**/ ترجمة أحمد الشيباني. – ٢ مج. – بيروت: دار مكتبة الحياة، (١٩٦٤م).

فإذا تجاوزنا هذه الأصول على أنها مسلَّمات لا تخضع للنقاش، لم يعد هناك داعٍ للتطرُّف في القبول المطلق، أو الرفض المطلق، ذلك لأن المسائل التي ستطرح للنقاش هي من النوع الذي يعين على قيام الحضارة، أو لا يعين على قيامها. وهنا تصبح المسألة مسألة رأي، يعتمد على الأثر في جانب، أو يغلِّب العقل في جانب آخر، أو ينظر إلى الواقع فيطوِّع له الأثر، أو يطوِّعه للأثر، ويطوِّع له العقل أو يطوِّعه للعقل، وهكذا. لأن الأمر، حينئذٍ، يصبح من كلام البشر، وكلام البشر يؤخذ منه ويردُّ، على ما أثر عن **مالك بن أنس وأحمد بن حنبل** – رحمهما اللّه تعالى –.[1]

وإنما وقفتُ هذه الوقفة رغبةً في مناقشة هذه المفهومات، التي لا أرى أنها قد نالت حظَّها من النقاش، ورغبة في التحديد الدقيق للمصطلحات التي تتردَّد الآن، وتؤخذ، في غالب الأحيان، دون مراعاة لمدلولاتها، وتأثير هذه المدلولات.

--- --- ---

(١) انظر، مثلاً: جرجي زيدان. **تاريخ التمدُّن الإسلامي**. – ٣ ج. – راجعه وعلَّق عليه حسين مؤنس. – القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٨م.

الوقفة الثالثة: الاختلاط (١)

المقصود هنا المخالطة، أخذًا من حديث المصطفى ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظمُ أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم».(١) والمجتمع المسلم يتكوَّن من مجموعة من الأفراد، ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا. وفيهم المحسن، وفيهم المؤمن، وفيهم المسلم، وبين المسلمين الفاجر والفاسق والضال. وفي المجتمع المسلم كافرون ومنافقون، ولا يخلو مجتمع من وجود معظم هذه الأنواع من الناس، من حيثُ علاقتُهم بالله تعالى، إحسانًا وإيمانًا وإسلامًا، وفجورًا، وفسوقًا، وضلالا، وكفرًا، ونفاقًا.

والمحسنون والمؤمنون والمسلمون عرضةٌ لأن يعتريهم الضعف، كما تعتريهم القوة. والإيمان، كما نعتقد، يزيد وينقص. وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن – سبحانه وتعالى – يقلِّبها كيف يشاء.(٢) وكذا الحال مع الفجَّار والفاسقين والضالين، منهم من يترك الفجور، ومنهم من يقلع عن الفسوق، ومنهم من يهتدي، فيدع الضلال. بل إن من الكافرين من يُسلم، ثم يؤمن، ثم يحسن،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع. حديث رقم: ٢٤٣١. ورواه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء. حديث رقم ٤٠٢٢. ورواه أحمد في المسند. مسند المكثرين من الصحابة. حديث رقم ٤٧٨٠. واللفظ لابن ماجه وأحمد.

(٢) سبق تخريج الحديث من رواية مسلم.

obeikandl.com

وإن كان أول إسلامه قد يتعرَّض للفجور والفسوق والضلال. وهذه، على ما يبدو، سنة الله تعالى في عباده. وكلَّما ازداد العبد علمًا، وعملا بما يعلم، زادت مسؤوليته نحو الاختلاط بالناس، والصبر على أذاهم، ليكون هذا الشخص مصلحًا، متعدِّيًا في صلاحه ذاتَه إلى غيره من الناس، بعد أن كان صالحًا، لازمًا صلاحُه لنفسه. وعليه فإن المصلح أكثر مسؤولية من الصالح، وهكذا.

والذي ينبغي النظر إليه لدى مخالطي الناس أن يكونوا من الصابرين على أذاهم. وليس المقصود، هنا، أولئك الرجال الذين تعارفنا عليهم بأنهم يعملون في مؤسسة تُدعى **الرئاسة العامّة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** فقط، ولكن المقصود جميع من يتولَّى الإصلاح أن يكونَ صابرًا على أذى الناس، وهذا يعني بالضرورة أن يكون صالحاً بذاته، قبل إن يبدأ بإصلاح الآخرين.

ومن المهمِّ، هنا، عدم اللجوء إلى التقوقع على الذات، وعلى ثُلَّة من الزملاء، أو الأصدقاء، أو الرفاق، ممَّن جمعهم التوجُّه الضيِّق، دون النظر إلى الآخرين من أبناء المجتمع، ممَّن قد يصدر عنهم شيء من الإيذاء للمصلحين من الناس. وإذا حصل هذا التقوقع فإنه مدعاة إلى الاتِّهام بأن المتقوقعين غير قادرين على الاختلاط بالناس، والصبر على أذاهم. ولعل بعض المتعجِّلين من الطيِّبين لا يقبل أنصاف الحلول، فإمَّا أن يخالط الآخرين، فيغيِّر

كلَّ شيء، وبكلِّ سرعة، وإمَّا ألاَّ يخالط الآخرين، إلاَّ مَن اتفق معهم في القدرة الفورية على التغيير.

على أن القدرة الفورية على التغيير قد تؤدِّي إلى آثار عكسية، قد تصل، بحسب الحال، أحيانًا، إلى الردِّة العنيفة، ولذا ينبغي الحذر والأخذ بالتدرُّج.[1] وإذا كانت النية صادقة في طلب التغيير، ولو بعد حين، فلعل الله تعالى يعلم بحال الصابرين، ويغفر لهم صبرهم على ممارسات من الفجَّار والفُسَّاق والضالين، الذين يرجى لهم الإقلاع عمَّا ألصقهم بما لصقوا به، فليست هذه المصطلحات الشرعية لتطلق على شخص بعينه، إلاَّ إذا اتَّسم بالصفات التي تخوِّل إطلاقها عليه. ومن أهم ما نحتاج إليه اليوم، من مجالات الدعوة، مجال الانطلاق إلى الآخرين، والاختلاط بهم، والصبر على أذاهم.

--- --- ---

(١) انظر، مثلاً: آمال قرامي. **قضية الردَّة في الفكر الإسلامي الحديث**. – مرجع سابق. – ١١٧ ص.

openkandi.com

الوقفة الرابعة: الاختلاط (٢)

في زمان يتقلَّص فيه العالم إلى أصغر من قرية صغيرة، وفي زمان تطغى فيه الدعوة إلى العولمة، من منظور اقتصادي، لن ينفلت عن المنظورات الأخرى، كالسياسية والثقافية والاجتماعية، في هذا الزمان يتعيَّن التوكيد على الحضور العربي الإسلامي في اللقاءات العالمية، التي تسير في هذا المسار، بحيث يكون لهذا الحضور تأثيرٌ على التوجُّهات، التي يسعى إلى تبنِّيها جمع من أولئك المؤتمرين، الذين يسعون إلى ترسيخ نظرتهم للأمور، التي لا تتَّفق، بالضرورة، مع المنظور الإسلامي، الذي يتَّسم بالنظرة الأعمق، والأبعد عن مجرد زمان محدَّد. وهناك من يتحفَّظ على حضور هذه اللقاءات الدولية، بحُجَّة أنه لا ينفع، أو عدم الحضور لا يضرُّ، إذ إن هذه اللقاءات لا تتَّسم بالإلزامية، التي تصدر عنها مشروعات اتفاقيات، أو معاهدات دولية.

والميل إلى الحضور مسوِّغ لعدة أسباب، يكفي أن يقال عنها: إنها تبرز وجهة نظر أخرى، ليست واضحةً للجميع، إن لم يتمّ توضيحها في هذه اللقاءات. ونحن من هذا المنظور مطالبون بالحضور لبيان وجهة نظرنا، بدلاً من الاحتفاظ بها لنا، دون إشاعتها بين الناس، الذين قد لا يصلهم هذا الصوت. والحضور هنا يكون على مستويين؛ المستوى الرسمي والمستوى الشعبي، وكلاهما يصبُّ في نتيجة واحدة: وهي تنوير هؤلاء المجتمعين بالمُثُل

والمبادئ، التي نعتقد أنها أصلح من تلك التي يراد لها أن تكون هي السائدة.

ونحن نعتقد أن تلك المُثُل والمبادئ، التي يتبنّاها الآخرون، بائنة الضرر، ولكن الذين يتبنَّونها ربَّما لم يطَّلعوا على ما هو أفضل منها. وقد يكون في الاختلاط هذا شيء من الضرر عند بعض من يظنُّون ذلك، ولكن النفع الذي يُجنى من الحضور أكثر من أي ضرر يمكن أن يكون. ويقابل هذا الضرر، إن وجد، بما تتيحه هذه اللقاءات من الاعتراض أو التحفُّظ أو بيان الحقِّ. ولعل هذا كلَّه داخلٌ في حديث المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ السالف ذكره.

إن من مسئوليتنا، اليوم، أن نتحمَّل الشيء الكثير، ونذهب إلى هذه اللقاءات والمؤتمرات، ونحن واثقون تمامًا ممَّا نحمله للغير، ونحاول أن يتبنَّوا ما نحمله من فكر وثقافة في الوهلة الأولى، أو نحاول، كما ذُكر، أن ننقل للغير أن هناك فكرًا وثقافة لا ترغب في الانصهار في الفكر والثقافة، التي يُراد لها أن تطغى عالميًا. ومهما يكن من أمر، فإن الحاجة إلى هذا الآخر هي التي أتاحت مثل هذا الوضع. وإذا ما سعت بقيَّة الدول إلى تقليص الحاجة، لوجدنا أن التأثير سيتقلَّص، وسيتبيَّن أن هناك بدائلَ أفضلَ من المعروض، ولكن الحاجة أعمت الحاضرين عن هذه البدائل الموجودة.

obeikandi.com

وستستمر هذه اللقاءات في الانعقاد، وستستمر الحاجة إلى الحضور والاختلاط فيها، ذلك الحضور الفاعل المتفاعل مع موضوعات هذه اللقاءات. وعلى أيِّ حال، فالذي يظهر هو ضرورة الحضور في هذه الأنشطة العالمية، التي تُعنى بالإنسان والحياة، والإعداد لها إعدادًا مناسبًا، وفي وقت مناسب، بحيثُ تتحوَّل إلى إثبات حقائق، بدلا من مواقف الدفاع والاعتذار والتبرير. ولا يكفي تسفيه التوجُّهات العِلمانية، في فرض مفهومٍ للإنسان والحياة، بل، مع هذا، يمكن مواجهة هذه التوجُّهات بتقديم التوجُّه الإسلامي الواضح.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة الخامسة: الاختلاط (٣)

المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ لا ينطق عن الهوى، وما يقوله – عليه الصلاة والسلام – ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (النجم ٠٠٤)، ومن ذلك نبوءته – عليه الصلاة والسلام – باتِّباع سنن من كان قبلنا، حذو القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخله المسلمون، ومَن قبلنا هم اليهود والنصارى، كما هو منطوق الحديث الشريف.[1]

وهناك عادات إسلامية، جاء الإسلام بترسيخها في المجتمع المسلم، قد لا تتَّضح حكمتها لكل الناس، وبالتالي فإنه ليس من الحكمة تسفيه هذه العادات، لاسِيَّما إذا وردت بنصٍّ نبوي شريف. ولكن الاتِّباع الوارد في الحديث الشريف أودى ببعض الناس أن يجعلوا بعض العادات الإسلامية، المأمور بها شرعًا من الأمور التافهة. وقد قرأت طرحًا أوصلها إلى هذا الوصف غير اللائق، لأنه ليس في الآداب الإسلامية توافه. وقد ينظر بعض الناس أنه من الحضارة أن نتَّبع سنن من كان قبلنا في كل شيء، حتى في العادات المتعلقة بالسلوكيات اليومية.[2]

---

(١) «لتتَّبعُنَّ سَنَن من كان قبلكم، حذوَ القذَّة بالقذَّة، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لدخلتموه». الحديث رواه البخاري ومسلم بألفاظ.

(٢) انظر: جحر الضبِّ: المزالق والمحاذير. – ص: ١٢٧ – ١٥٧.

وما الذي يضيرنا أن نخالف الآخر، إذا ما كانت هذه المخالفة ستكسبنا أجرًا، هو أجر الاتِّباع لسنة المصطفى **محمَّد ابن عبدالله** ﷺ، وأجر المخالفة لليهود والنصارى، ومن سار على نهجهم، هي أمور سهلة جدًا، ولكننا لا ننظر إليها من واقع سهولتها، بل إن بعضنا، ينظر إليها من واقع أننا نريد أن نُري الآخرين أننا في صفِّهم، في العادات والتقاليد، بينما هم يتوقَّعون منَّا ألا نكون مثلهم في العادات والتقاليد، لأننا نمثِّل ثقافة مختلفة في أشياء كثيرة، وإن اتفقت في أشياء أخرى مع ثقافات أخرى. وإننا بحاجة، دائمًا، إلى أن نتذكَّر جحر الضب، كلَّما عنَّ لنا أن نبرز أنفسنا، من خلال ثقافتنا.

وهذا مظهر من مظاهر الخصوصية، التي لا نفتأ نسوِّقها للغير، خصوصية التميُّز الدافع، لا خصوصية التقوقع على الذات، والانغلاق على النفس. وهي خصوصية الانطلاق، التي تسمح بتبنِّي الآخر لها، بل إنها تدعو لذلك من خلال ما نقدِّمه نحن من قدوة للآخر، في سلوكيَّاتنا ومسالكنا وأنماط حياتنا، من عادات وتقاليد إسلامية ثابتة، بأصول التشريع الإسلامي، وليست مجرَّدَ موروثات محليَّة، لا علاقة للدين بها، ولا مجال لخلطها به.

وقد يَعدُّ بعضُهم هذا الطرح مظهرًا من مظاهر التسطيح، ثم التزمُّت، الذي لا ينبغي التركيز عليه كثيرًا، وأنه يُعدُّ من الأمور الصغيرة. وهي كلمة أخفُّ بكثير ممن عدَّها من التوافه؛ لأنني أؤكِّد دائمًا أنه ليس في الدين توافه على الإطلاق، ويقع في الحرج

من يعتقد ذلك. ولست منبريًا إلى الدفاع عن هذا اللوم، من منطلق أنه ليس في الدين صغائر، والتوجُّه لعظائم الأمور لا ينفي الالتفات إلى الأمور التي تُعَدُّ صغيرة.

واللوم الثاني، الذي قد يرد في دعوى التسطيح، أن الأمَّة تمرُّ بأزمات عظام، يحسن طرقها والوقوف عندها، بدلا من الوقوف عند العادات في الأكل والشرب، لاسِيَّما أن بعض علمائنا متَّهم بالاهتمام بالأمور أو الأحوال الشخصية في حياة المسلم، على حساب الأمور الجسام التي تعصف بالمسلمين.

ولقد عايشتُ فئة من الناس تحزَّبوا، أعُدُّهم من الغلاة المتطرِّفين، الذين أرادوا تعطيل كل شيء في حياة المسلم، حتى يتمَّ التغلُّب على هذه الأزمات الجسام، التي تمرُّ بها الأمَّة، لا أقول كلَّ شيء على سبيل التعميم، لأنهم لم يتركوا الفروض، ولكنهم أرادوا تعطيل الأمور الشخصية، حتى يقيِّض الله لهذه الأمَّة من يقودها، كما كانوا يقولون على المنابر، وفي المجالس، وفي نشراتهم التي تعبِّر عن توجُّههم. وهذا، كذلك، مظهر من مظاهر التزمُّت، إذا ما كان هذا هو التوجُّه نحوه.

ولستُ في هذا أطرق أمرًا، يُحسب أنه على حساب أمور أعظمَ منه، لأنني لا أرمي لذلك، ولا أميل إليه، وأحسب أني قد وقفتُ كثيرًا عند المنهج الوسط، التي نريد دائمًا أن نتَّسم به. ومع هذا فإنه من الموضوعية أن أؤكِّد على أن بعضنا لا يقدِّم نفسه على أنه

obeikandi.com

متزمِّت، أو متعصِّب، أو من الغلاة، حتى يتبيَّن له ذلك، مع التعمُّق في العلم الشرعي، والأخذ عن العلماء والفقهاء الوسطيِّين.

ولعلَّ الحماس لا يأخذ منَّا مأخذه، بحيث نعطِّل أمورًا في سبيل أن نقيم أخرى. على أن لنا قدرات، وقدراتنا، مهما كانت، محدودة. ونحن مطالبون بإقامة هذا الدين على قدر ما أوتينا من قدرات: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾. (البقرة ٢٨٦)، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾. (التغابن ٠١٦).

وليس من المنهج الشرعي القويم، كما يظهر، أن نعطِّل ما نقدر عليه، حتى يتحقَّق ما لا نقدر عليه، وليس من المنهج الشرعي القويم، كذلك، أن نتعمَّد المخالفة؛ بحجَّة أننا لو لم نخالف لرُمينا بالتزمُّت من ناحية، أو لرُمينا بعنايتنا بالأمور الصغيرة في الدين، على حساب الأمور الكبيرة. فأن يكونَ الإنسان عندنا سويًّا في دينه وفي خلقه، خير له من أن يتعلَّق بأمور، هي، نعم، مهمَّة، لكنها فوق طاقته هو، والسؤال عنها يوم القيامة قد لا يكون بقدر السؤال عن التفريط، الذي حصل منه في حياته الخاصَّة، ومع مَن يعول.

ومهما يكن من أمر فإن التنبيه حول هذه الوقفات يكسب صاحبها مزيدًا من التأمُّل والتفكير، والتنبُّه إلى ما قد يغفل عنه.

--- --- ---

الوقفة السادسة: الاختلاط (٤)

المعصية تصرُّفٌ سلوكي في الحياة، غير مرغوب فيه، يقوم به شخص أو أشخاص، ويعود ضرره عليه، أو على الآخرين، أو على المجتمع بعامَّة. وكثيرٌ من الناس، اليوم، من يقترف معصيةً من المعاصي. والأصل في الناس الابتعاد عن المعصية، ذلك أن اللّٰه – تعالى – قد خلق فيهم القابلية الفطرية للابتعاد عن الشرِّ، وتلمُّس الخير. وواقع الأمر أن الشخص نفسه قد يكون واقعًا في معصية، وهو يرفع راية الدعوة إلى الإقلاع عن المعصية. وأحسب أن هذا الشخص يقع في المعصية، دون إدراك منه أنه واقعٌ فيها، بل إن الدعوة إلى الإقلاع عن المعصية قد توقع صاحبها في معصية أشدَّ من المعصية المراد الإقلاع عنها، فترسِّخها، عنادًا ومكابرة.

والأصل في المسلم المؤمن الحرصُ على الدعوة إلى الإقلاع عن المعصية. ولن يكون قادرًا على ذلك إلا إذا خالط الناس، وصبر على أذاهم مصداقًا لحديث المصطفى ﷺ عن المخالطة، السالف ذكره. والتعامُل مع العصاة ضربٌ من ضروب النهي عن المنكر، والنهي عن المنكر، كما الأمر بالمعروف، لا يتأتَّى إلا بالعلم والصبر والحلم والرفق. أمَّا خلاف ذلك فإنه مدعاة للنفور والابتعاد عن الداعية، الذي قد يكون فظًّا غليظ القلب، فينفضُّ الناس من حوله: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾. (آل عمران ١٥٩). هذا مع الأخذ بالحسبان أن المعصية لا تعني الخروج من الملَّة، وأن العاصي لا يزال داخلاً في حدود الإسلام. فإذا كان التعامُل مع غير المسلمين من أهل الكتاب والوثنيين والملحدين مطلوب فيه الرفق والحلم والصبر والعلم، فالتعامُل بهذه الروح مع المسلمين من باب أولى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾. (الفتح ٠٢٩).

والشدَّة مع الناس، هنا، لا تتناقض مع متطلَّبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ إن لها مكانَها، وللرفق والعلم والحلم والصبر مكانَها أيضًا. وكأني ببعض الشباب، من الدعاة بخاصَّة، يتعاملون مع العصاة بشيء من القسوة، التي تنفِّرهم من قبول الدعوة إلى الإقلاع عن المعصية، وتولِّد فيهم الإصرار على الاستمرار في طريق الخطأ، وهم، أي العصاة، يعلمون أنه خطأ.

وإقلاع الفرد العاصي أو المجتمع العاصي عن المعصية لا يتمُّ بسرعة وسهولة، ولكن هذا لا يعني الاستسلام لهذا الواقع، والعزوف عن المجتمع واللجوء إلى أبسط الحلول، بالاختلاط بالمقلعين عن المعصية، وترك العصاة وحدهم تفترسهم المعاصي.

ومخالطة العصاة لا تعني، أيضًا، إقرارهم على معاصيهم، ولا الاعتراف بأنها أمر يسير، بل إن في المخالطة بيانًا لما في المعاصي من بلاءٍ مستشرٍ على العاصي، وعلى من حوله.

ولعلنا نتذكَّر، دائمًا، موقف **موسى وهارون** – عليهما السلام – من **فرعون** المتألِّه، الذي وصل به الأمر من الكفر إلى ادِّعاء الربوبية. فيبعثهما اللّه تعالى له، ويوجِّههما بأن يقولا له قولا لينًا لعله يتذكَّر أو يخشى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾. (طه ٠٤٤) . وقد ثبت في علم اللّه تعالى أن **فرعون** لن يتذكَّر ولن يخشى، ولكن هذا الحكم ليس في يد البشر، وما عليهم إلا الدعوة إلى اللّه.

--- --- ---

obeikandl.com

الوقفة السابعة: الاختلاط (٥)

يبدو أن هناك توجُّهًا يلوح في الأفق للعودة إلى البساطة، فقد بدأت تظهر صيحات تدعو إلى نبذ العادات المقيِّدة لأخذ الراحة، في التعامُل مع المعطيات اليومية للحياة. ومن ذلك أسلوب الأكل، وما يسمِّيه بعضنا دون تردُّد "بالإتيكيت"، في تناول الطعام والشراب، والجلوس في المحافل الدولية، والمناسبات الرسمية، لاسِيَّما أن هذه الصيحات تعيد أصل التمسُّك بهذه العادات إلى ظروف اجتماعية، كانت قائمة من قبل، لكنها تميل إلى الاضمحلال مع مرور الوقت، بحيث ينزِعُ الناسُ إلى البساطة، التي لا تعني بالضرورة العودة إلى البدائية، التي تصوِّرها لنا بعض الأفلام، التي تجني على التاريخ وصانعيه، إلا أنه يبدو أن الناس قد بدءوا يمَلُّون هذا الأسلوب في تناول الأشياء.

وقد جرت العادة، أو "الإتيكيت" في المآدب، عالميًا، أن يأكل الناس بأيديهم اليسرى، ويقطعون باليمين، بينما الصورة معكوسة في الأدب الإسلامي، وبالتالي فقد يكون من غير المألوف، الآن، عالميًا أن يأكل الواحد منا باليمين، فترتيب طاولة الطعام ينهج هذا المنهج، حتى أنك إذا عدَّلت ترتيب المائدة، تبعك النادل، وأعاد ترتيب السكِّين والملعقة والشوكة، ووضعها الوضعَ الذي تدرَّب عليه في معاهد الفندقة، أو الدورات التي حصل عليها. ويصل الأمر إلى أن بعض التابعين منا لا يتردَّد في اتِّباع سنن من كان قبلنا، على

أن ذلك مسلك حضاري. ويُضرب بهذا السلوك المظهري مثلاً لشيوعه، ويمكن القياس عليه.

وأضحت البساطة في التناول مطلبًا محبَّبًا، سرى على الطرح الذي بدأ يتشبَّث بالوضوح والشفافية، مما يعني البُعد عن التصنُّع، الذي يُعَدُّ سمةً من سمات السلوكيات الرسمية في اللقاءات الرسمية الخاصّة. وبالتالي، فإن الناس يُرَحِّبون بمن يكون على هذه الشاكلة، دون أن يخلَّ هذا بمكانة هذا الشخص الاجتماعية، إذ إنه ليس بالضرورة أن تُكتسب المكانة الاجتماعية بذلك التصنُّع الذي تراه مستهجنًا، ممن لا ينتظر منه هذا الأسلوب في التعامُل مع الأشخاص والأشياء.

وقد يذهب الذهن في العودة إلى البساطة أو البدائية، بالمفهوم الإيجابي لكلمة البدائية، إلى أنها بدأت تفرض نفسها بفعل الضرورة، التي هي نتيجة لتوسُّع الإنسان في استغلال معطيات الحضارة بالتقنية المتطوِّرة جدًّا. وقد اضطُرَّت خطوط الطيران إلى العودة إلى البساطة هذه، دون قصد، ولكن للضرورة، عندما ألغت الخطوط آلات الأكل الحادَّة، واستبدلت بها آلاتٌ بلاستيكية، قد تتكسَّر عند استعمالها في الأحوال العادية، مما يضطرُّ الراكب معه إلى إغفال استخدام هذه الآلات أو الأدوات، وبالتالي، استخدام الأيدي في إيصال الطعام من المائدة، إلى الفمِّ. وهذا ظاهر لمن يتابع الركّاب في أكلهم، مع أن "الإتيكيت" لا

يسمح بمتابعة الآكل وهو يأكل، ولكن لا مانع من اللحظ السريع، الذي يعطي هذه الانطباعة.

وهل هذا الطرح يتوافق مع الصيحات التي تنادي بالعودة إلى البساطة في السلوكيات، وترك الإنسان على سجيَّته المؤصَّلة، التي تتماشى مع الضوابط التي يرسمها المجتمع، ويتوارثها الناس، من منطلق أنها لا تخرج من مفهوم المباح، الذي هو في الدين دائمًا أصل الأشياء، أو الأصل في الأشياء؟ والعودة إلى البساطة بهذا الطرح لا تعني، بالتوكيد، العودة إلى التقزيز والرثاثة في العادات والتقاليد، على ما تصوِّره الأفلام التاريخية في الأنماط الغذائية، وفرق بين هذا وذاك، وإنما جاء التوكيد على ذلك سعيًا إلى نزع هذا الفهم من بعض مَا قد يتبادر إلى أذهان مَن يتنصَّل من كل ما يعين على سلامة المظهر في السلوك بعامة، وفي العادات الاجتماعية بخاصة.

وتستمرُّ رغبة الناس في العودة إلى هذا النهج، الذي يبعث على الراحة والاستمتاع، بدلاً من ربط الشخص نفسَه بتصرُّفات لا يقتنع بها، وليست بالضرورة من معطيات ثقافته. ولذا فإن هذه الدعوة تكتنف، دون تعمُّد، التخلُّص من أساليب **التغريب**، التي تبنَّاها بعض الشرقيين، في الوقت الذي يحاول فيه الغربيون التخلُّص منها. على ما مرَّ بيانه في وقفة الاختلاط (٣).

--- --- ---

الوقفة الثامنة: الشدُّ

الحساسية من الأشياء تتولَّد عندما يكون هناك نوع من الشدِّ في موضوع من الموضوعات، أو أمر من الأمور. والشدُّ بين الإسلام والأديان الأخرى موضوع مستمرٌّ، ولكنه يتفاوت في القوَّة من زمن إلى آخر. وقبل سنين معدودة لا تصل إلى ربع قرن من الزمان لم يكن الشدُّ بين الإسلام والأديان الأخرى ظاهرًا على السطح، على الرغم من أن اليهوديَّة تجثُم على أرض إسلاميَّة، وتحتلُّ ثالث الحرمين الشريفين، وأولى القبلتين في **بيت المقدس** من **فلسطين** المحتلَّة. إلا أن المعنيِّين بالأمر من العرب الفلسطينيين، وغير الفلسطينيين لم ينظروا جميعًا على أن هذا الوضع جزء من الشدِّ بين الإسلام والأديان الأخرى.[1]

وكانت هناك محاولات، متعمَّدة، ترمي إلى إبعاد هذا المفهوم من الأذهان، في الوقت الذي يتوالى فيه وقوف جماعات من اليهود أمام ما يسمُّونه بحائط المبكى،[2] وهم يتلون أسفارهم، يتعبَّدون بها.[3] ثم مع بروز ظاهرة الصحوة الإسلامية، وإظهار الإسلام على

---

(١) انظر: حسن حنفي. «الغرب والبحث عن عدوٍّ». — ص: ٢٣٨ — ٢٥١.
في: **الإسلام والغرب: صراع في زمن العولمة**. — تأليف مجموعة من كُتَّاب العربي. — الكويت: مجلَّة العربي، ٢٠٠٢م. — (سلسلة كتاب العربي؛ ٤٩).

(٢) انظر: جيل كيبل. **ثأر الله: الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث**. — ط ٢/ ترجمة نصير مروَّة. — ليماسول (قبرص): دار قرطبة، ١٩٩٨م. — ٢٢٢ ص.

(٣) انظر في نظرة الآخر إلى مفهوم الصحوة الإسلامية: دليب هيرو. **الأصولية** =

السطح، بشكل أقوى مما كان عليه من قبل، زاد الشدُّ قوَّةً.[١] ذلك أن الإسلام جادٌّ في عزَّة المسلمين، وبُعدهم عن الهوان والذلَّة والصغار. وهذا يعني امتدادَ المدِّ الإسلامي في أرض الله الواسعة، وحلوله بديلاً لأفكار وضعيَّة وتنظيمات وقتية. ومن هنا يزداد الشدُّ.

وليس الشدُّ أصلاً من أصول العلاقة بين الإسلام والأديان الأخرى، وبوضوح أكثر بين الإسلام والنصرانية واليهودية، ولكن الشدَّ يبدأ عندما يرفض أرباب الأديان الأخرى الاعتراف بالإسلام، نظامًا للحياة، يكفُل عيش الجميع، تحت حماية الأحكام الشرعية، التي تعطي كل ذي حقٍّ حقَّه.[٢] ومع هذا فإن هذا الرفض ليس مسوِّغًا للِّجوء إلى الشدِّ في العلاقة المفضية إلى التعايُش. وقد حصل هذا التعايُش، القائم على التسامُح، في الأزمنة الأولى للإسلام، إلى الدرجة التي جعلت بعضًا من غير المسلمين

=

الإسلامية في العصر الحديث/ ترجمة عبدالحميد فهمي الجمال. – القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م. – ٥١٢ ص. – (سلسلة تاريخ المصريين؛ ١٠٧).

(١) انظر في العلاقات بين اليهودية والنصرانية والإسلام: خلف محمَّد الحسيني. **اليهودية والمسيحية والإسلام**. – القاهرة: المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤هـ. – ٢٢١ص.

(٢) انظر: عاطف علبي. التسامُح والثقافات. – **التسامُح**. – ع ٥ (شتاء ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م). – ص ٢٩٩ – ٣١٤.

يسيئون إلى هذا التسامُح من المسلمين، فيسعون إلى تحقيق أغراض ذاتيَّة، لا تتَّفق مع التوجُّه العام في المجتمع المسلم.(١)

وتاريخ الدولة العباسية حافل بممارسات أولئك الذين كانوا مقرَّبين من الولاة والأمراء والخلفاء، ولكنها لم تكن ممارساتٍ عامَّة، بل إن بقيَّة الآخرين كانوا يتمتَّعون بحقوقهم التي كفلها لهم الإسلام، رغم ميل بعض الأشخاص من المسلمين إلى عدم الرضا التَّام بهذه الحقوق تعطى للغير. ولكن الأمر ليس متروكًا للأشخاص، بل هو شرع مفروض على الجميع، يزداد إيمان الشخص ما ازداد تطبيقًا له، ولو جاءت بعض أحكامه على غير ما يهواه بعض الأفراد.(٢)

وتزداد الحساسية والشدُّ هذه الأيام بين المسلمين وغيرهم مع وضوح الرؤية أكثر، في **فلسطين** المحتلَّة، وفي أصقاع أخرى من العالم، ومن ذلك أرض البلقان، التي قادت أحداثها الدامية كثيرًا من المفكِّرين إلى الإيمان التامِّ بأن المسألة قضيَّة وجود الإسلام على الأرض الأوروبية، ورفض الأوروبيين، **البروتستانت** و**الأرثودوكس** و**الكاثوليك**، على حدٍّ سواء، هذا الوجود. وقد

(١) انظر: شوقي أبو خليل. **التسامُح في الإسلام: المبدأ والتطبيق**. ـ بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. ـ ١٤٤ ص. ـ (سلسلة هذا هو الإسلام؛ ٣).

(٢) انظر في مناقشة هذه الفكرة من تسامُح الخلفاء العبَّاسيين مع غير المسلمين: علي بن إبراهيم الحمد النملة. **ظاهرة النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية**. ـ ط ٣. ـ الرياض: المؤلف، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. ـ ٢٨٢ ص.

opeikandi.com

خفَّت مع هذه الأحداث النظراتُ إلى الأسباب العرقية، أو النزاع على الأرض من أجل الأرض.

ليت المسلمين يوفَّقون إلى تقديم الإسلام للغير على أنه ليس خطرًا يهدِّد وجودهم، بل إنه نعمة تحفظ للإنسان كرامته، وتحترم وجوده، وتعينه على حياة هانئة مطمئنَّة.(١) وهذا يمكن أن يتمَّ عندما يفهم المسلمون أنفسُهم الإسلامَ على حقيقته، تطبيقًا على الواقع، وليس مجرَّد أفكار واجتهادات، في التحليل والتفسير لنصوص الكتاب والسُّنَّة. عندها سيتمكَّن المسلمون من إزالة الحساسية والشدِّ، مع الاعتراف التَّامِّ أن الآخر لن يخضعَ جميعًا لحكم الإسلام ونظامه في الحياة؛ ذلك أن الصراع بين الحقِّ والباطل مستمرٌّ،(٢) وأن الآخر لن يرضى عن المسلمين حتى يدخل المسلمون في ملَّتهم بنصِّ القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَن

---

(١) انظر العددين الخاصين بالتسامُح ومنابع اللاتسامُح من مجلَّة: **قضايا إسلامية معاصرة**. – ع ٢٨ – ٢٩ (صيف وخريف ٢٠٠٤ – ١٤٢٥هـ)، التي تصدر عن **مركز دراسات فلسفة الدين** ببغداد. وانظر، كذلك: طروحات مجلَّة **التسامُح**، التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، في عُمان. مع التوكيد على التفريق بين التسامُح المطلوب والتساهُل الذي قد يصل إلى حدِّ التسيُّب، بما في ذلك ليُّ أعناق النصوص.

(٢) انظر: عادل محمد صالح أبو العلا. **الصراع بين الحقِّ والباطل كما جاء في سورة الأعراف**. – الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م. – ٧٩٠ ص. وانظر أيضًا: إبراهيم بن محمد أبو عباة. **الصراع بين الحقِّ والباطل**. – الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٢هـ/١٩٩١م. – ٨٥ ص.

تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة ١٢٠).

إلا أن حدَّة الحساسية وقوَّة الشدِّ سوف تخفُّ كثيرًا، عندما يفهم الآخر الإسلامَ على حقيقته، ولا يبقى حينئذ إلا المعاندون المكابرون المدافعون عن مصالحَ شخصية، لفُّوها بلفافة الدين، وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان. وتلك مسؤولية من مسؤوليات المسلمين اليوم عمومًا، والدُّعاة منهم بخاصة، في التعامُل مع الآخر بهذا المقتضى.

--- --- ---

الوقفة التاسعة: التناهي

لقد لعن اللّه تعالى اليهود، فقد كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (المائدة ٠٧٩). ويُفهم من هذا أن أيَّ أمَّة لا تتناهي عن المنكرات، التي تتعاطاها، هي حقيقةٌ بالطرد والإبعاد من رحمة اللّه. وضمنًا يُفهم من هذا، أيضًا، أن الأمم التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر حَرِيَّةٌ بأن تنال رحمة اللّه تعالى، وعونه وتوفيقه. وكثير من الأمم تتَّفق على مبادئ ومُثُل وقيَم، تتمثَّل في جملة من السلوكيات الحسنة (الإيجابية)، وسلوكيات أخرى غير حسنة (سيئة أو سلبية). فالسلوكيات الحسنة هي الوضع الذي يتذاكر الناس فيها، ويشدَّدون عليها، ويدعو بعضهم بعضًا إلى التمسُّك بها. وبالتالي يتعارُف المجتمع على سلوكيات مشينة، ممارَسة، ولكنها غير مقبولة وتتعرَّض للمقاومة المنظَّمة، أو التطوُّعية، من أبناء المجتمع أنفسهم، على اختلاف في الأساليب. والأصل عندنا، نحن المسلمين، أن كلَّ واحد منَّا مطالب بالإسهام في بناء المجتمع، وحمايته من المنكرات الفكرية والسلوكية، التي قد تحصل من البشر، مهما وصلوا إلى قدر عالٍ من الوعي والثقافة والحضارة.

بل إنه قد يقال: إنه كلَّما زاد هامش الوعي والحضارة والثقافة، زاد هامش الوقوع في أخطاء في الممارسة، نظرًا إلى أن الوعي اليوم والثقافة ترتبطان بمقوِّمات، ليست بالضرورة مستمدَّة

من الأصول التي قامت عليها الأمَّة، بل إنها غالبًا مستمدَّة من ثقافات أخرى، لها هي مقوِّماتها التي اختارتها لنفسها، وارتضت لنفسها أيضًا أن تمارسها. وسعت إلى تعميمها على الآخر، في خضم الدعوة المحمومة إلى العولمة، التي لا تنسى السعي إلى عولمة الفكر، أو عولمة الثقافة.[١]

وهذا يعني طغيان فكر القوي على الضعيف، وثقافة الأعلى على الأدنى، كما هو مضمون محاضرة الدكتور **فهد العرابي الحارثي** التي ألقاها في **مكتبة الملك عبدالعزيز العامّة** في ١٤١٩/٨/١٧هـ الموافق ١٩٩٨/١٢/٦م، بعنوان "موقعنا في الكونية الإعلامية الجديدة: العولمة والفضائيات العربية.[٢] ونحن، من منطلق مقوِّماتنا الثقافية، ومهما ضعُفنا اليوم، فإننا لا نقبل سيطرة ثقافة أخرى على حياتنا، مهما كانت هذه الثقافة قويَّة. ولكننا مع هذه لا نمنع من الأخذ عن هذه الثقافة، ونتمثَّل شيئًا من مقوِّماتها، التي تتَّفق ونظرتنا نحن لهذه المقوِّمات. وبالتالي فإننا نلحظ أن هناك ممارساتٍ في تلك الثقافة لا تتَّفق مع منطلقاتنا، فنتناهى عنها، ونسعى إلى توصيل هذا التناهي إلى معتنقي تلك الثقافة، مهما

---

(١) انظر: برهان غليون وسمير أمين. **ثقافة العولمة وعولمة الثقافة**. – مرجع سابق. – ٢٤٠ ص.

(٢) فهد العرابي الحارثي. موقعنا في الكونية الإعلامية الجديدة. – مرجع سابق. – ٦٦ ص.

وصل بنا الضعف الآني المؤقَّت.[1] ولن نوصِّل هذا إلى الآخر حتى نتفاهم نحن على الأسلوب، لا على المبدأ، ونتِّفق على ضرورة التناهي في المجتمع. وهذا، بعد التفاهم والاتِّفاق، يتمُّ على أنه من فرض الكفاية، عندما يعود الأمر إلى تنظيم هذا الأداء، وقيام مؤسَّسة، أو مؤسَّسات تقوم به.

ولعلَّ الذين ينحون هذا المنحى ليسوا بالضرورة على اقتناع من هذا الطرح، ذلك أن الأمم، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، لم تستغنِ، ولا تستغني، ولن تستغنيَ، عن نمط من أنماط الدعوة إلى التغيير، مع الحفاظ على مقوِّمات البناء الاجتماعي، التي اتَّفق الناس عليها، وتلقَّوها من منطلقاتهم الثقافية، القائمة، دائمًا، على الدين، مهما اختلفت الوسائل والطُّرق. فكلُّ ثقافة تأمر بمعروفها، وتنهى عن منكرها، بطريقتها التي ترتضيها.

ولا يمكن أن يقومَ مجتمع صالح دون أن تقوم فيه أجهزة الحسبة، التي يأتي منها جهاز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعندما فَقَد هذا الجهاز الرسمي، في بعض المجتمعات، قدرته على التأثير اضطرَّ المجتمع نفسه إلى إقامته، بالمتطوِّعين من أبنائه، الذين لا يزاحمون أجهزة الحسبة الأخرى، بل يعاضدونها ويتعاونون معها. وقام هذا الأسلوب في أكثر المجتمعات وعيًا وإدراكًا

---

(١) انظر: مصطفى النشَّار. **ضدُّ العولمة**. – ط ٢. – القاهرة: دار قُباء، ٢٠٠١م. – ٣٣٢ ص.

وتحضُّرًا. ذلك أنه كلَّما زاد الإدراك والتحضُّر والوعي، تفتَّحت مجالات جديدة للمنكر؛ لأن الحضارة قد اقترنت بالتفتُّح على الآخر، والأخذ منه.

ولا يؤخذ من الآخر، دائمًا، كلُّ ما هو إيجابي، بل قد ينسلُّ المنكر، الذي يحتاج إلى من يقف متصدِّيًا له، من خلال مقاييسَ متَّفقٍ عليها، وليس من خلال نظراتٍ شخصيةٍ، تقوم على المزاج أو النظرة القاصرة، أو حتى على التعصُّب ضدَّ كل ما هو جديد، أو قادم من الآخر. وأخيرًا، فإن الذي يتصدَّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يخدم بهذا العمل غيره من أبناء مجتمعه. وقليلاً ما يستفيد منها القائم بها فائدةً عاجلة، ولكنه يحتسب لذلك كلِّه الأجرَ العظيم عند الله تعالى.

وكون هذا الأسلوب غير موجود، تنظيمًا وعلى مستوىً رسمي، في المجتمعات القويَّة المتعالية، لا يعني أنها ليست بحاجة إليها، وأنها، كما زعم بعض المتابعين، وصلت إلى قدر من الوعي، بحيث لا تحتاج إلى مؤسَّسة أو جهاز أو أي شكل من أشكال تنظيم التناهي عن المنكرات. والواقع أن تلك المجتمعات عادت، أخيرًا، إلى شكل من أشكال التنظيم للتناهي عن المنكرات، التي فشت فيها. وعليه فإن التناهي يظلُّ ضرورة ملحَّة، لئلا تتعرَّض الأمَّة للطرد والإبعاد من رحمة الله.

وإذا تحقَّقت ضرورة التناهي عن المنكر لتحلَّ البركة، وتقرُب الأمَّة من رحمة الله تعالى، فإن التناهي عن المنكر،

obeikandi.com

وبالتالي الأمر بالمعروف، يقتضي مؤهلاتٍ ثلاثةً ضرورية، تسبق التناهي وتصحبه وتلحقه، وهي العلم، والرفق، والصبر. يقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في الجزء الثامن والعشرين من **مجموع الفتاوى**: «فلا بدَّ من هذه الثلاثة: العلم والرفق، والصبر. العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحبًا في هذه الأحوال؛ وهذا كما جاء في الأثر من بعض السلف، ورووه مرفوعًا، ذكره القاضي **أبو يعلى** في **المعتمد**: «لا يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه».[1]

ومن المتقرِّر أن المعاصي سببُ المصائب، وأن الطاعات سبب النعم. والمعاصي لا تفرض نفسها على المجتمع، بل يقودها إليه العصاة، لعدَّة أهداف، قد لا تتحقَّق جميعها عند كل عاصٍ. فتقوم الحاجة إلى ردع العصاة بالمؤهِّلات الثلاثة المذكورة. وكلَّما ضعُف العصاة قلَّت المصائب، والعكس صحيح. والمصائب قد لا تصيب العصاةَ أنفسَهم وحدهم: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ (الأنفال ٠٢٥)، ولكنها ستصيب الآخرين بالبلاء، فالجميع في مركب واحد، وعليهم

(١) أحمد ابن تيمية. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**. – مرجع سابق. – ٢٨: ١٣٧.

الحفاظ على هذا المركب، والأخذ على يدي أولئك الذين يخونهم التفكير، فيرغبون في الوصول إلى الغاية بأي وسيلة، حتى لو أدَّى الأمر إلى غرق هذا المركب في النهاية، وأدَّى بالتالي إلى هلاك جميع الراكبين، وليس أولئك الذين خانهم التفكير، فقط.

وعود إلى **ابن تيمية** – رحمه اللّه تعالى – في الجزء الثامن والعشرين من **مجموع الفتاوى**، حيث يقول: «وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشرِّ والعدوان، فقد يذنب الرجل أو الطائفة، ويسكت آخرون عن الأمر والنهي، فيكون ذلك من ذنوبهم، فيحصل التفرُّق والاختلاف والشرِّ. وهذا من أعظم الفتن والشرور، قديمًا وحديثًا؛ إذ الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل أنواع، فيكون ظلم الأوَّل وجهله من نوع، وظلم كلٍّ من الثاني والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر».[١]

والنتيجة أن من لا يملك المؤهلات الثلاثة: **العلم والرفق والصبر**، أو يجد في نفسه قصورًا في أحدها، فإنه حريٌّ به أن يبتعد عن التناهي العامّ، ويقتصر على نهي نفسه عن المنكر، وأمرها بالمعروف. ولعل هذا مفهومٌ من منطوق كلام شيخ الإسلام **ابن تيمية**، بحيث يصل المرء إلى نتيجةٍ مؤدَّاها أن هذا الصنف من الأفراد، رجالاً ونساءً، غيرُ مطالب بالتناهي، واللّه سبحانه وتعالى

(١) أحمد ابن تيمية. **مجموع الفتاوى**. – المرجع السابق. – ٢٨: ١٤٢.

أعلم بالسرائر، ولعله تعالى يثيب الراغب في التناهي، مع عدم القدرة عليه بثواب القادر عليه.

ومن الجميل جدًّا أن يشعر جميع الناس من أبناء المجتمع المسلم بمسؤوليتهم تجاه هذا الضابط المهمِّ من ضوابط المجتمع. ومع أن الحكم الشرعي لهذه الشعيرة الدينية هو من فرض الكفاية، إلا أن الجميع مطالبون بقدر من الإسهام في هذا، ليس على سبيل الفرض العين، ولكن على سبيل المسؤولية الذاتية الشخصية. ممَّا يؤكِّد هنا أن كلَّ مسلم يتحمَّل قدرًا من المسؤولية تجاه مجتمعه، بقدر ما أوتي من قدرات على تحمُّل المسؤولية، قد تكون قدراتٍ علميةً أو قياديةً إداريةً، أو قدرة قائمة على المنصب أو الجاه أو الثراء، أو القدرة على التأثير الإيجابي. فإن لم يكن قادرًا على التأثير الإيجابي فإنه يُسهم بالابتعاد عن هذا الأمر، لأنه، في وضعه هذا، قد يُسيء أكثرَ مما يُحسن، في الوقت الذي يعتقد فيه أنه يؤدِّي هذا القدر من المسؤولية.

ومثل هذا النوع من الناس معذور في عدم الإسهام المباشر بالتناهي، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن المفسدة المترتِّبة على قيامه بهذا تفوق المصلحة المرجوَّة منه. وعليه فإنه ليس كلُّ الناس قادرين على التصدِّي لهذا الأمر، حتَّى في أصغر الحالات داخل المنزل، مثلا، ومن الخير لهذه الفئة أن تبتعد عن التغيير.

--- --- ---

الوقفة العاشرة: التَّهْيئة

تمرُّ المنطقة العربية، ومن بينها البلاد الإسلامية ضمنًا، بمرحلة حسَّاسة جدًّا من تاريخها. هذه المرحلة هي نتاج تراكُمات بدأت قديمًا، وليست وليدة اليوم. تناقش هذه الفكرةَ المؤلِّفةُ **عَزَّة علي عزَّت** في كتابها: **صورة العرب والمسلمين في العالم.**[١] هذه المرحلة ليست كلها من تدبير الآخر، على أناس يتفرَّجون، ولكنها كما يؤكِّد **مالك ابن نبي** – رحمه اللّٰه تعالى – جاءت بسبب توافر **القابلية** لدى العرب، ليمرُّوا بهذه المرحلة. وهذا أمر مهمٌّ لابد من التوكيد عليه، إذ إن التعامل مع الإنسان لا يمكن أن يتمَّ، دون أن يكون له أثر فيه. وهذا الأثر إمَّا أن يكون سلبًا أو إيجابًا.[٢]

ويمكن للفكر أن ينطلق إلى أي سلوك، يعني هذا المرء أو ذاك، دون أن يكون له رأي فيه، إلا أن يكون هناك عمل ما ضد إرادة المرء، كأن يخضع لسحر يسلُب الإرادة، أو أن يُسلَّط عليه

---

(١) عَزَّة علي عزت. **صورة العرب والمسلمين في العالم** ـ القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. – ٣٠٤.

(٢) انظر: مقدِّمة الطبعة الفرنسية بقلم: الدكتور عبدالعزيز الخالدي، حيث ينقل عن مالك بن نبي عبارته التي أضحت نظريةً: «لكي لا نكون مستعمَرين يجب أن نتخلَّص من القابلية للاستعمار». – في: مالك ابن نبي. **شروط النهضة**/ ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين. – دمشق: دار الفكر، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. – ص ٩.

مخدِّر يسلُبه إرادته، كذلك، كما يفعل الحكماء/الأطباء الجرَّاحون مع مرضاهم، وكما يفعل الآسرون مع أسراهم المستعصين عليهم.

وأحسب أن **القابلية** قد تولَّدت لدى العرب والمسلمين، عندما أقبلتْ عليهم جحافل المستعمِرين، فقد كان العرب والمسلمون في حال من الضعف، جعل الاحتلال مسألةً مطلوبة، دعا إليها بعض العرب أنفسهم، لإخراجهم مما كانوا عليه من الضعف والهوان، حتى لقد بات المتحدِّثون عن النهضة العربية يؤرِّخون لها بالحملة الفرنسية على مصر، كما يؤرِّخ آخرون من القوميين لهذه النهضة بإلغاء الخلافة العثمانية الإسلامية في الآستانة/**إسطنبول**، على يد **مصطفى كمال أتاتورك**. لكن هذه **القابلية** لم تكن متوافرة إبَّان الحملات الصليبية التسع، التي امتدَّت قرابة مئتي سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٥م إلى ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، إلا أنها لم توفَّق، بسبب ضعف القابلية أو عدمها، فكانت ممارساتٌ استفاد الصليبيون الغزاة من المسلمين المغزيِّين منها، وتعلَّموا منهم بدلاً من أن يُعلِّموهم.(١)

وفي هذا يقول القسِّيس **جورج ليونارد كاري**، فيما نقلته عنه مجلَّة **الاجتهاد**: «أعي تمام الوعي أن صراعات العصور الوسطى بين

---

(١) انظر: أمين معلوف. **الحروب الصليبية كما رآها العرب**/ ترجمة عفيف دمشقية. ـ الجزائر: المؤسَّسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، ٢٠٠١م. ـ ٣٥٢ ص.

الإسلام والمسيحية تلقي بظلالها القاتمة على هذه القضية. ولا يشعر أي مسيحي في الوقت الحاضر بالرضا عن الطريقة التي اتبعها أسلافنا في حسم الصراعات في الماضي. فقد تسبَّب الصليبيون في إحداث آثار جسيمة في علاقات المسيحيين ببعضهم وعلاقاتهم بالمسلمين، فهناك الكثير لنعتذر عنه».[(١)]

وإذا عُدنا إلى واقعنا اليوم، ودون اللجوء إلى جلد الذات، نجد أنه من المحتَّم أن نتحمَّل جزءً غيرَ يسير مما يقال عنَّا، سواء في ممارستنا الفردية أو العامّة، التي عادت علينا وبالاً، ولم تخدمنا، وإن كانت محسوبةً على أصحابها، إلا أن بعض هؤلاء الأصحاب لا يمثِّلون أنفسهم، ذلك أنهم يخضعون، ربَّما دون شعور منهم، لأنْ يكونوا مُهيِّئِين لما يمكن أن يحدث لهم ولمنطقتهم، في مستقبل قريب من تاريخ التهيئة، إذ إنهم هم الذين يدْعون في النهاية إلى التدخُّل الخارجي على بلادهم وعلى منطقتهم، فيوجِدون **القابليَّة** لهذا التدخُّل، ربَّما مرَّة أخرى، دون شعور منهم.

ولعل هذا ما حدث للعراق الذي ستثبته الأيام القادمة، أو تنفيه،[(٢)] إذ هيَّأت القيادة العراقية السابقة المجال لما يحدث الآن في هذا البلد، الغني بمواطنيه، وتراثه، وثرواته الطبيعية، تحت سطح الأرض وفوقها، إلا أنه غُيِّب عن الساحة العربية والإسلامية، ثم

---

(١) جورج ليونارد كاري. تحدِّيات العلاقات بين الديانات الكبرى. - **الاجتهاد**. - ع ٣٠ (شتاء ١٤١٦هـ/١٩٩٦م). - ص ٢٠٥ - ٢١٥. والنصُّ من ص ٢٠٦.

(٢) أثبتت الأيام والأحداث أكثر مما كان متوقعًا.

الدولية، طيلة أكثر من ثلاثين عامًا، هي زمن التهيئة. وإذا صحَّ عشرة بالمئة (١٠٪) من الروايات، التي تُذكر عن الممارسات التي كانت تقوم بها القيادة العراقية السابقة، فإن العيب ليس للزمان، ولكن لمن يعيشون هذا الزمان في ذلك المكان.

هذا مشروع تنظيري يمكن أن تُقاس عليه حالاتٌ عدَّة، مرَّت على العالم كله، وليس فقط على المنطقة العربية، والإسلامية تبعًا، تشهد عليه الأحداث السابقة، من خلال استقراء التأريخ. ويمكن أن تقاس عليه حالات فردية خاصَّة، تكون فيها التهيئة حاضرة في الذاكرة، ومن خلال منظومة من الإرهاصات. ولعلَّ هذا المشروع فيما يتعلَّق بالتهيئة يخفِّف العبء على منظور الشمَّاعة، التي يبحث فيها عن متحمِّلٍ للذنب كلِّه، وإن كان هذا المبحوث عنه يتحمَّل الذنبَ جُلَّهُ.

إن صورة العرب والمسلمين في العالم، على رأي السيدة **عزة علي عزت**، ستظل على هذا القدر من الغبش، ما لم يجزم العرب أنفُسُهم على تصفيتها، من خلال إعادة النظر في موقعهم من الخريطة، هذا الموقع الذي ظلَّ حسَّاسًا، وسيظل كذلك، لعوامل عديدة، ذات علاقة بالجغرافيا والبيئة والموارد والدين والتاريخ. ولعلَّ أهل هذه المنطقة يُهيِّئون، بدلاً من أن يُهيَّأوا، وهذا ممكن، وقد حصل في الزمان الذي مضى، ويمكن أن يحصل في الزمان الآتي.

--- --- ---

الوقفة الحادية عشرة: المروق

صدر كتاب للكاتبة التونسية **آمال قرامي**، ويأتي الكتاب ليعالجَ مفهوم الردَّة، أو قضية الردَّة في الفكر الإسلامي الحديث، في صفحات مفعمة بالمعلومة الموثَّقة، والنقاش المباشر، والمصارحة في معالجة قضية الردَّة، وإن لم تخلُ المؤلِّفة من غمز أو لمز، ولكن القارئ يقرأ لمن يؤخذ من كلامه ويُردُّ.(١)

ومن الأمور التي تعرَّضت لها السيِّدة **آمال قرامي** قضيَّة إلحاد المسلم، ودواعي هذا الإلحاد، فتذكر من الدواعي لذلك تخلِّي الأسرة عن تربية الأولاد تربية دينية، وترك ذلك للدولة، من خلال نظام التربية والتعليم. وفي المقابل قد تكون هناك أسرٌ متحلِّلة، أدَّى انحلالُها وتفريطُها إلى الانسلال من الإسلام. وفي الوجه الآخر وُجِدت أسرٌ حرصتْ، حرصًا فيه قدر من الإفراط، على تنشئة الأولاد تنشئة دينية صالحة، بحيث «يمارس فيه الآباء سلطة على الأبناء، فيحاسبونهم على النوافل وكأنَّها فرائض، وعلى المكروهات وكأنَّها محرَّمات».(٢) وهذا بدوره قد يؤدِّي إلى الإلحاد، كما تذكر المؤلِّفة.

ولعلَّ هذا مما عنته المؤلِّفة في عنوان جانبي أعطته اسم **الردَّة الصامتة** التي هي، على حدِّ قولها، من الظواهر التي استشرت في

---

(١) آمال قرامي. **قضية الردَّة في الفكر الإسلامي**. — مرجع سابق. — ١١٨ ص.

(٢) آمال قرامي. **قضية الردَّة في الفكر الإسلامي**. — المرجع السابق. — ص ٥٦.

المجتمعات الحديثة، وبرزت في ضعف المبالاة، أو عدمها، بالدين، بحيث يصعب اليوم في بعض المجتمعات المسلمة، وليس في كلها، التمييز بين المسلم وغير المسلم، «إذ إنه لا يكفي أن يحمل الشخص اسمًا عربيًا، أو أن ينتمي إلى أسرة مسلمة لنجزم بأنه مسلم، فكثيرون هم أولئك الذين وجدوا أنفسهم "مسلمين" بالوراثة، أو بالتقليد الاجتماعي، أو بالعادة، فيكون إسلامهم نتيجة لذلك، كما قال **رشيد رضا**: إسلامًا جغرافيًا، أو لنقل هو إعلان لفظي عن الانتماء الديني».(١)

ولقد جمعني عزاء لبعض المسلمين في **تونس** العاصمة، فدار حوار حول الفتاوى، وطريقة صياغتها، والميل إلى الأخذ بالأحوَط لسدِّ الذرائع، فانبرى أحدهم لائمًا ذلك الشخص الذي نبَّهه على أن لحم الخنزير ومشتقاته حرام، بنصِّ القرآن الكريم. واستنكر عليه هذا التنبيه، والأمَّة تمرُّ بمحنٍ سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وكأنِّي بهذا الشخص يمثِّل إحدى هذه المحن، إذ إن من المحن الثقافية السعي إلى تحليل ما حرَّم اللّه، بدواعي أن الأمَّة مشغولة بما هو أعظم من أداء الصلاة في وقتها، أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير، أو شرب الخمر. وكأن صاحبنا هذا كان نتيجةً لأسرة متحلِّلة ساعدته على الانسلال من الدين، وإن لم ينسلَّ

(١) آمال قرامي. **قضية الردَّة في الفكر الإسلامي**. – المرجع السابق. – ص ٣٩.

تمامًا، ولكن صاحبي الآخر الواعي نبَّهه إلى ضرورة التوقُّف عند الأمور التي وردت فيها نصوص، واضحة في تحليلها أو تحريمها.

لقد مرق، و يمرُق، جمعٌ من الناس من الدين لأسباب متعدِّدة، لها صلة بالتربية والتوجيه، ولها صلة بالقدوة، ولها صلة، كذلك، بالتشدُّد، ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، وخير الأمور الوسط – دائمًا – فلا انحلال يؤدِّي إلى الانسلال، ولا إفراط يؤدِّي، كذلك، إلى الانسلال. ثم قبل ذلك، وبعده، الهداية من عند اللّه، واللّه تعالى يهدي من يشاء، ولكنه السعي إلى التوسُّط في الوصول إلى هذه الهداية، التي جعل اللّه للبشر مسؤوليةً فيها مباشرة، من خلال هداية الإرشاد والتوجيه، لا من خلال هداية التوفيق.

--- --- ---

openkandi.com

الوقفة الثانية عشرة: الغُربة

في استقراء شامل وسريع لأوضاع العالم الإسلامي، اليوم، يستشعر بعض المتشائمين حديث المصطفى ﷺ حول غربة الإسلام: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء».[1] وهناك من يكاد يجزم بأن هذا الحديث الشريف ينطبق علينا اليوم. إلا أن هناك متفائلين آخرين، يصرُّون على أن الأمر لم يصل إلى هذا الحدِّ، ويؤكِّدون أن الإسلام بخير، والحمد لله. ولكل من الرأيين حُجَّته وبراهينه، المستقاة من واقع المسلمين. والمقياس الذي ينبغي عليه وزن حال العالم الإسلامي اليوم ينحصر، فيما يبدو، بمعيارين أساسيين:

المعيار الأول: صحَّة العقيدة وسلامتها في قلوب الناس، وعقولهم، وأذهانهم.

والمعيار الثاني: ترجمة هذه الصحَّة والسلامة إلى أفعال وأقوال، أو مدى ترجمة صحَّة العقيدة وسلامتها على الواقع قولاً وفعلاً.

ولا بدَّ من وضوح كل معيار من المعيارين، من حيث مفهومُهما، إذ إن هناك إطلاقًا متكرِّرًا لمصطلح **العقيدة**، لا يعني

(١) رواه مسلم وابن ماجه والترمذي واحمد بن حنبل. واللفظ لابن ماجه، دون «كما بدأ»، باب بدأ الإسلام غريبا. حديث رقم ٤٠٣٤. بتحقيق محمَّد مصطفى الأعظمي.

obeikandl.com

دائمًا بالضرورة إحاطة الشخص المطلِق لهذا المصطلح، بما يعنيه هذا المصطلح، فقد يؤكِّد على إطلاقه، ويكرِّره أقوام في عقائدهم خلل، وفي تصوُّراتهم العقدية خلل، أو نقص على أقلِّ تقدير. فليس إطلاق المصطلح الديني الإسلامي يعني فهم هذا المصطلح.

و**العقيدة** اسم جامع شامل لكل ما يتعلَّق بالتوحيد، بأنواعه الثلاثة، المعروفة لدينا، في دراساتنا الأوَّلية للتوحيد؛ توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات. وقد أدخل بعض المتأخِّرين أنوعًا أخرى للتوحيد، كتوحيد الاتِّباع، وتوحيد الحاكمية! وفي هذا المفهوم مدلولات فرعية، تتعلَّق بالأسباب والمسبِّبات، بحيث يُنظر إلى المادَّة من حولنا، من بشر أو موارد أو مادة، على أنها أسباب أو وسائل، تتمُّ من خلالها السيطرة على المراد، سواء أكان هذا المراد رزقًا أم شفاءً، أم أيَّ نعمة من النعم.

ولابد من اتِّخاذ الأسباب المشروعة في سبيل الحصول على النعم، فالسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضَّة. وينبغي أن يراعى في الأسباب المتَّخذة قدرتها المادِّية على أن تكون سببًا. ولذلك فإن الأموات، مثلاً، ليسوا من أصحاب القدرة على جلب النعمة، أو جلب المنفعة، أو الضرر، وعليه فإنه لا يمكن عَدُّهم من الأسباب. ومن هنا تلغى فكرة التوسُّل بالأموات، وطلب غير الممكن منهم.

وإذا ما رسخ هذا المفهوم في النفس وفَّر المسلمون كثيرًا من الاهتمام بالأموات من الأولياء والصالحين، فاقتصرت علاقتهم بهم

في الدعاء لهم، وزيارتهم، كلَّما سنحت الفرصة، لا لجلب منفعة، ولا لدرء مفسدة، بل للسلام عليهم، والدعاء والاستغفار لهم. وسيوفِّر هذا على المسلمين كثيرًا من الشطط والخلل في عقيدتهم، وستحسن أحوالهم.

ولو تجاوزنا الأموات إلى الأحياء، نجد أن الله تعالى يسَّر خلقه لأعمال، يقومون بها، وسخَّرها لهم. وفي هذه الأعمال مساس مباشر في حياة الآخرين. ولننظر إلى الطبيب، مثلاً، فقد سخَّره الله ليكون سببًا في شفاء الناس، بعد أن تمكَّن من السيطرة على هذا العلم، ولكنه مهما سيطر على العلم، فإنه لا يعدو أن يكون سببًا في الشفاء، إذ الشفاء من الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ ﴾ (الشعراء ٠٨٠). وكون الشفاء من الله تعالى لا يمنع من اتِّخاذ الأسباب، مع التوكُّل على الله تعالى. ومن اتِّخاذ الأسباب زيارة الطبيب، وأخذ العلاج.

وينسحب على هذا قدرات أرباب العمل، وصنَّاع القرار، في السيطرة على أرزاق الناس، إلى الحدِّ الذي لا يُخرجهم عن كونهم أسبابًا في جلب الرزق، وليسوا هم جالبيه. ومثل هذا يقال في مسائلَ تفصيلية، يستوجبها مصطلح **العقيدة**. فمتى ما كانت هذه المسائل واضحة في النفوس صحَّت العقيدة. على ألاَّ يُفهم من هذا أن يكون الجميع علماء في هذا المجال، بل إن هناك ما يُعلم من الدين بالضرورة. وممَّا ينبغي أن يعلم من الدين بالضرورة سلامة المعتقد.

obeikandi.com

والمعيار الأوَّل له علاقة بسلامة العقيدة، **والمعيار الثاني** ذو علاقة بالأفعال والأقوال، التي تترجم سلامة العقيدة إلى الواقع، فالعقيدة في القلب، أي أنها مفهومات راسخة في الذهن، لا تبرز بذاتها، وإنما تبرزها الممارسات، فقوَّة الإيمان وضعفه ليسا مجالا للوزن المادِّي، إلا من خلال التصرُّفات التي يقوم بها المرء، ويمكن أن يحكم عليه، من خلالها، بأنه ضعيف الإيمان، أو قوي الإيمان، هذا مع الأخذ بالاعتبار أن الإيمان يقوى ويضعف، أي يزيد، وينقص.

والممارسات على نوعين، نوع تتحدَّد العلاقة فيه مع اللّه تعالى مباشرة، كالعبادات التوقيفية، وبشكل واضح في مسألة الصلاة والصيام والحج. ونوع تتحدَّد فيه العلاقة مع اللّه تعالى من خلال التعامُل مع البشر، وهذا ينطبق على جميع أنواع التعامُل مع الناس، القريب منهم والبعيد، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، وذلك مثل الزكاة والصدقات والأوقاف، والعلاقات الأسْرية، والتعامل الاقتصادي والتجاري، وعلاقة الراعي بالرعية، والجيرة، والسَّير، وضبط المجتمع... الخ. وهذه الممارسات، في مجملها، تعود بالنفع المباشر على البشر، وقد تعود بالضرر المباشر على الأفراد، كذلك، من حيث تعطيلُها لمصالح فردية، على حساب المصلحة العامَّة، أو الجماعية، والمصالح العامَّة مقدَّمة على المصالح الخاصة، ولذا فإن ممارستها تُعَدُّ من الطاعات، إذا ما عقدت النية على أنها عبادات.

والإساءة إلى الناس لا تقتصر على ضرر الناس في الدنيا فحسب، بل إنها تخضع لمفهوم الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة كذلك، ومن هنا تأتي الدعوة إلى إقامة الحدود، وتطبيق الأحكام؛ لأن في فعلها ذاتها تطبيقاً لمفهوم العبادة، ومن ثمَّ القرب من روح الإيمان. ولعل هذا من مسوِّغات الدعوة الملحَّة إلى تطبيق الشريعة، في المجتمعات الإسلامية التي لا تطبَّق فيها الشريعة، في بعض المجالات.

والذين يقولون بغُربة الإسلام اليوم يحتجُّون لذلك بأن هذا المعيار غير مطبَّق، تطبيقاً تامًّا في بعض المجتمعات المسلمة، وليس فيها كلِّها. وأن الأمور في بعض المجتمعات متروكة للتطبيقات الفردية، فمن شاء أن يعبد فليعبد، ومن شاء ألاَّ يعبد فلا يعبد، بالمفهوم الذي لا يُكره الناس على الدين، ولكن بالمفهوم الذي يكفُل قيام مجتمع مسلم، سالم من كثير من المشكلات، التي تترتَّب على عدم تطبيق الشريعة في المجتمع، فلا يستطيع إنسان أن يحكمَ صيام المرء، ولا يستطيع إنسان أن يتأكَّد أن القائم لأداء الصلاة يؤدِّي الصلاة، فعلا، ولكن الإنسان يستطيع إيجاد الجو الذي يتمُّ فيه الصيام، وتقام فيه الصلاة، من خلال جملة من التشريعات، التي تعين الناس على العبادة، وكذا الحال مع المعاملات التجارية، والعلاقات الاجتماعية، وعلاقة الراعي بالرعية.

وإيجاد الجوِّ المناسب للعبادات لا يأتي تلقائيًا، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. وهنا يأتي عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي تأتي قوَّة السلطان، مع تعدُّد وسائل هذه القوَّة، وتعدُّد وسائل التطبيق. وما لم تتدخَّل قوَّة السلطان في تهيئة الجو، فإن الأمور تتحوَّل إلى شيء من الاجتهادات، التي تولِّد شيئًا من الغلوِّ في الدين، من حيث الرغبةُ في التطبيق، أو الرغبةُ عن التطبيق. وهذا ما يطلق عليه في مصطلحات اليوم التطرُّف، بجناحيه: الغلوُّ الذي يؤكِّد على ضرورة تطبيق الإسلام، في مجالات الحياة كلها، والغلوُّ الذي يسعى إلى إبعاد الإسلام عن الحياة العامّة.

والسلطان يستطيع أن يوازن بين الأمرين، ويستخدم أسلوب الوسط، الذي قامت عليه الأمَّة، ويدرك، بما أوتي من قدرات تخدمه، مدى القدرة على التطبيق الكامل، أو التطبيق التدريجي، والتطبيق على المنتمين للإسلام، والتطبيق على الجاليات والأقليَّات غير المسلمة، في المجتمع المسلم... وهكذا. وإذا اجتمعت قوَّة السلطان واقتناع مجمل الناس أمكن التطبيق الدقيق بيسر وسهولة. وأقول مجمل الناس، هنا، لأنه لا يتوقَّع من الجميع الاقتناع، فالمجتمع هذا مجتمع بشري، له وعليه.

ومهما يكن من أمر فإن الحكم على غُربة الإسلام ينبغي أن يستوحي المعيارين السابقين، وإلا وقع الفرد في محذور الهلاك، الذي ورد فيه حديث المصطفى ﷺ: «من قال هلك الناس فهو

أهلَكَهُم أو أهلَكُهُم»،[١] ولمن قال بالغُربة مسوِّغاته. ولكن المقياس ليس المادِّيات والمرئيات المحدودة، ولكنه الاستقراء والمعايير. وسيظل الإسلام والمسلمون بخير، رغم كل الأحداث.

--- --- ---

(١) رواه مسلم، وسبق تخريجه.

obeikandl.com